

المحاضرة الأولى: تاريخ ليبيا الحديث (01) طرابلس الغرب تحت النفوذ الاسباني 1510م – 1551م.

نستهل محاضرات تاريخ ليبيا في العصر الحديث بالتطرق إلى أهم الأحداث والمراحل التاريخية التي عرفت ليبيا في هذا العصر، والتي يمكن تقسيمها إلى مرحلتين هامتين وهما:

أ- مرحلة النفوذ الاسباني والممتدة من سنة 1510 م وتنتهي عام 1551م بطرده فرسان مالطا منها من طرف الأسطول العثماني .

ب-مرحلة الحكم العثماني وتبدأ مع إحاق طرابلس بالخلافة العثمانية عام 1551م وتنتهي بالغزو الايطالي لليبيا ونهاية الحكم العثماني بها عام 1911م.

في هذه المحاضرة نحاول التطرق إلى أهم الأحداث التي عرفت ليبيا خلال النصف الأول من القرن 16 م والذي تميز بسيطرة الأسبان على طرابلس الغرب بالرغم من أنهم مارسوا الحكم فيها بصورة غير مباشرة في المرحلة الأولى عندما أسندوها إلى نائب الملك في صقلية (1510م – 1530م) وفي المرحلة الثانية عندما منحها الملك كارلوس الخامس (شارلكان) إلى منظمة فرسان القديس يوحنا (1530م – 1551م).

1- طرابلس الغرب قبيل الغزو الاسباني 1492م – 1510م :

كانت طرابلس الغرب قبيل الغزو الاسباني تابعة للدولة الحفصية التي باشرت الحكم عليها انطلاقا من تونس من خلال تعيين واليا عليها تابعها لهم ، وتركها الحفصيون نتيجة لضعفهم في أواخر دولتهم ،فخضعت طرابلس الغرب لسلطة أصحاب النفوذ من قبائلها المختلفة ،فعمت الفوضى وكثرت الثورات وأهملت الحصون والأسوار.

في العقد الأخير من القرن 15م كانت طرابلس الغرب تحت حكم الشيخ سيدي عبد الله بن شرف (1492م- 1510م)، وكان يلقب بسيدي عبد الله المرابط (الولي الصالح) لصلاحه وتقواه ،وكان الشيخ عبد الله رجلا عادلا مستقيما في أموره مع الناس وكانت علاقاته مع جاره ملك تونس طيبة كما كانت سياسته مع المسيحيون الذين كانت لهم علاقات تجارية مع بلاده فيها الكثير من التساهل واللين.

لم يهتم الشيخ سيدي عبد الله بتحسين حصون طرابلس وتقوية أبراجها و أسوارها ، والواقع أن أيام سيدي عبد الله لم تكن أياما لامعة في تاريخ طرابلس على الرغم من صلاحه وتقواه وحبه للعدل ، ويظهر ان حب الطرابلسيين له ودعوته بأسمه ورغبته فيه يرجع إلى عدم مطالبته للطرابلسيين بالخراج وتساهله مع الناس في أمور الجباية وعدم فرض الضرائب العادية والغير العادية لإنعاش الجيش الطرابلسي وتقوية الأسوار والحصون.

لهذا فقدت طرابلس الغرب مكانتها كمركز استراتيجي تشرف على الحوضين الشرقي والغربي للمتوسط ، كما فقدت أسواقها شهرتها القديمة واستفحلت الأزمة الاقتصادية إلى جانب ضياع النفوذ السياسي واضطر التجار إلى استخدام السفن البندقية والصقلية والمالطية والجنوية والاسبانية لتصدير البضائع الآتية من الممالك الإفريقية (برنو ، كانوا.....الخ) ، ويحدثنا المؤرخ مارمول كاربخال عن مدينة طرابلس : (اشتهرت هذه المدينة في جميع الأزمنة بتجارة مزدهرة وذلك بسبب مجاورتها لتونس ونوميديا....وكان من عادة تجار مالطة وصقلية أن يتعاطوا التجارة معها...) ، أما رواية الجراح الفرنسي جرار Girard والذي عرف باسم الطبيب المستعبد le Médecin esclave فإنها تقول بان طرابلس كانت تنعم تحت حكم عبد الله بالعيش الرغد عندما غزاها الأسبان ، حيث لم تتخذ أية استعدادات للدفاع عنها.

2- ظروف الغزو الاسباني لطرابلس الغرب 1510م.

عرف القرن 15م ظهور قوة الأسبان الجديدة في غرب البحر الأبيض المتوسط ، هذه القوة جاءت كنتيجة لاتحاد المملكتين الايبيريتين قشتالة والاراغون بعد الزواج التاريخي بين فرديناند ملك الاراغون وإيزابيلا ملكة قشتالة ومن نتائج هذا الزواج ظهرت اسبانيا الجديدة وتمت هذه الوحدة بمباركة البابوية التي رسمت لهذه القوة الجديدة خطتها في المستقبل:

1- طرد المسلمين من بلاد الأندلس وملاحقتهم والانتقام منهم.

2- التطلع للسيطرة على الشمال الإفريقي.

تحركت الجيوش الاسبانية باتجاه السواحل الشمال الإفريقية فتم احتلال ميناء المرسى الكبير عام 1505م وفي عام 1509م احتلت مدينة وهران وفي سنة

1510م سيطروا على مدينة الجزائر و استولوا على مدينة بجاية في سنة 916هـ
1510م .

أرسل فرديناند دو ارغون ملك اسبانيا أسطولاً بقيادة الكونت بيدرو نافارا **pietro Dinavarra** وضمن هذه الخطة اتجهت الحملة الاسبانية باتجاه طرابلس الغرب ليتم احتلالها عام 1510م ، والملفت أن الأسبان عند توجههم إلى طرابلس الغرب قد انظم إليهم أسطول صقلية ثم أسطول مالطة كمرشد لهم رسا الأسطول الاسباني في ميناء طرابلس ليلا فلم يفتن به أحد واستولى عليها في الحال بدون قتال بيد ان سكانها نجحوا في الهروب تحت جنح الظلام والتجئوا إلى تاجوراء وتلك هي الرواية التي ذكرها المؤرخ الليبي ابن غلبون .

ويذكر الطبيب المستعبد : (ولقد يسر هذا الاستغراق في الطمأنينة حملة بيدرو نافارا الذي دخل الى الميناء وقصف المدينة من جهة البحر والبر ، ورأى سيدي عبد الله والأهالي أنهم لا يملكون القوة للمقاومة والصمود في وجه عدو بمثل تلك القوة فما كان منهم إلا الاستسلام في هدوء) .

رسا الأسطول الاسباني أمام ميناء ليلة 25 جويلية 1510م وجرت عملية إنزال الجيوش في القوارب الصغيرة وبدأ هجوم الأسبان عند الساعة التاسعة صباحا والظاهر إن الأسبان لم يلقوا صعوبات كبيرة في احتلال طرابلس... حيث لم يكن لطرابلس الوسائل الكافية للرد على ضربات وإذكاء المقاومة ونتيجة للقصف الشديد تمكنوا من اختراق السور والسيطرة على قلعة طرابلس الغرب.

3- طرابلس الغرب تحت النفوذ الاسباني 1510م – 1551م
المرحلة الأولى : طرابلس الغرب تحت حكم نائب الملك الاسباني في صقلية 1515م –
1530م:

عمد الأسبان عند احتلالهم طرابلس الغرب إلى نهب المدينة و تهجير أهاليها حتى عمها الخراب واغلب سكانها لجئوا إلى منطقة تاجوراء و مصراتة ، اقتصر الوجود الاسباني في طرابلس الغرب على الشريط الساحلي ولم يستطيعوا التوغل داخل القطر الليبي نظرا لمقاومة السكان ففي طرابلس الغرب خرج معظم سكانها إلى تاجوراء واتخذوها قاعدة خلفية للمقاومة ضد الاحتلال الاسباني، خلال السنوات الاربع للوجود الاسباني في طرابلس الغرب 1510م- 1515م ولضمان بقاء المدينة تحت الحكم الاسباني عمد ملك اسبانيا إلى إلحاقها بمملكة صقلية فارتبطت المدينة مباشرة بحكومة نائب الملك المقيم في صقلية.

نظرا لانشغال الأسبان بمشاكل القارة الاوربية وصراعها مع فرنسا وظهور الإخوة خير الدين باربروس في حوض المتوسط وتخوفها من ضياع طرابلس وغيرها من مناطق نفوذها في الجزر الايطالية ، فان الملك الاسباني قرر التنازل

عن جزيرة مالطة ومدينة طرابلس الغرب لصالح فرسان القديس يوحنا، وجاء هذا :

أولا : لتعويضهم عن بعض خسائرهم في شرق المتوسط ومواقعهم التي فقدوها لصالح العثمانيون .

ثانيا : لضمان كسب تأييد الرأي العام المسيحي في صراع اسباني مع الفرنسيين، ومقابل هذا التزم فرسان القديس يوحنا بالحفاظ والدفاع عن جزيرة مالطة ومدينة طرابلس مع حفاظهم على ولائهم لشارل الخامس ، ويبدو أن أسبانيا أرادت من وراء ذلك الاستفادة من الموقع الاستراتيجي لمدينة طرابلس بعد ربطها بجزيرة مالطا.

المرحلة الثانية : طرابلس تحت حكم فرسان القديس يوحنا 1530م – 1551م

عمل فرسان القديس يوحنا منذ عام 1530م على تثبيت حكمهم في طرابلس الغرب حيث انسحب منها الأسبان وجعل منها الفرسان مقرا عسكريا لهم بعدما اخذوا من جزيرة مالطا مقرا روحيا للمنظمة ، وطيلة تواجدهم بطرابلس الغرب عاثوا فسادا فيها واستبدوا بالحكم فيها بدافع حقدهم على الإسلام والمسلمين والملاحظ على إن سيطرة الأسبان ومن بعدهم فرسان القديس يوحنا لم تكن شاملة لكل التراب الليبي حيث نلاحظ أن إقليم برقة أرتبط في أغلب الفترات التاريخية بمصر، ولم تكن هذه التبعية دائمة ، نظرا لكثرة انتفاضات قبائل الجهة الشرقية واتساع الصحراء وكانت السلطة الفعلية في الغالب لشيوخ القبائل وبعد سيطرة العثمانيين على مصر عام 1517م سيطروا أيضا على إقليم برقة.

أما إقليم فزان ونظرا لبعده عن الساحل المتوسطي وتمركز إقليمه في الصحراء جعله بعيدا عن أطماع المسحيين وتمتع إقليم فزان بحكم شيوخ قبائله ومن أشهر حكامه أسرة المنتصر بن محمد الذي بقي أحفاده يحكمون الإقليم حتى بعد دخول العثمانيين إلى ليبيا.

بيبلوغرافيا أساسية

المصادر:

- 1- أبو عبد الله محمد بن غلبون، التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من أخبار، تعليق: الطاهر أحمد الزاوي، القاهرة، 1349 هـ.
- 2- أحمد بك النائب الأنصاري الطرابلسي، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، منشورات مكتبة الفرجاني طرابلس ليبيا. (دون تاريخ النشر)

مراجع:

- 1- ايتوري روسي، طرابلس تحت حكم الاسبان وفرسان مالطا، ترجمة، خليفة محمد التليسي، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان، طرابلس، ليبيا، الطبعة الاولى، 1969، الطبعة الثانية 1985م، 126ص.
- 2- محمد مصطفى بازامة، ليبيا في عشرين سنة من حكم الاسبان (1510م – 1530م)، منشورات مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا، 1965م، 112ص.
- 3- الطاهر الزاوي، ولاية طرابلس من بداية الفتح العربي والى نهاية الحكم التركي، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، وطبع ايضا عند محمد الرماح بشينة، ليبيا، الطبعة الاولى 295، 1970ص.
- 4- كورو، فرانسكو، ليبيا أثناء العهد العثماني الثاني، طرابلس، ط2، 1984.
- 5- السيد، محمود، تاريخ دول المغرب العربي، الإسكندرية، 2000.
- 6- سامح، عزيز، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة: عبد السلام أدهم، ط1، 1969.
- 7- روسي، إتوري، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911م، ط1، 1974.
- 8- بروشين، نيكولاي إيليتش، تاريخ ليبيا من منتصف القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين، بيروت، ط2، 2001.
- 9- التليسي، خليفة محمد، حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب، ط3، 1997.